

قصّة لؤلؤة

للأديب حسين شوقي

ولدتُ في أعماق المحيط الهندي ، وكنت أقيم هادئة مطمئنة في مقصورتي الصدفية ، إلا أنني سئمتُ الحياة التي كنتُ أقضيها على نمط واحد ، واشتقتُ إلى مشاهدة العالم الآخر القائم فوق سطح الماء الذي طالما حدثتنا عنه الأسماك في دهش وإعجاب ، ولكن أخواتي من اللؤلؤ أشرن علي بالصبر ، زاعمات أن الانسان سوف ينزل إلى الأعماق لينزعني من خلوتي ، لأننا معشر اللؤلؤ — على زعمهن — ذوات قيمة نادرة عنده ، وقد صدقن في زعمهن ، إذ نزل إلينا ذات يوم زنجي ليأخذني من صدفتي ، إلا أن الحوت اقترب من السكين ، ثم حاول زنجي آخر بعد ذلك بقليل أن يفعل فعله سابقه ، ولكنه لم يدركني ، إذ كنت في عمق سحيق فمات غثثقا . . . بعد هذين الحادثين لم يبق لدي شك في قيمتي عند الانسان ، وأنا خاملة الذكر في البحر ، لذلك ازداد شوقي إلى مشاهدة هذا العالم . . . ثم أتى زنجي ثالث محدود استطاع أن يرفعي إلى سطح الماء ، وهذا سلمني إلى رجل أبيض أخذ ينظر إلى في شره بعد أن انتزع عني بسكينه الحاد صدفتي السكينة !

وأراد زنجي رابع أن يسرقني من الرجل الأبيض ، ولكن الأبيض دأبه أثناء السرقة فضربه بالسوط ضرباً مبرحاً مزق جلده وأسأل دمه . . . يا غبية أمل لو كان هذا هو كل ما يشاهد في دنيا الانسان !

سافرت بعد ذلك إلى لندن على متن باخرة نفعة . . . وهناك قامت فتاة حسناء بصقلي في دقة وأناة . . . وبعد أن انتهت من عملها رفعتني بأصبعيها ، وأخذت تتأملني طويلاً ثم تهتبت من الأعماق . تخشيتُ عليها أن تفعل فعله الزنجي السارق ، لأن جلدها ناعم لا يتحمل السوط . أما أنا فكان بودي أن أعلق بجيدها البلوري أو أعلق بيدها الناعمة . . .

ثم أخذني جوهرى فقرضني في زجاج دكانه . . . وكان المارة ينظرون إلى في إعجاب وفضول ، وذلك ما أدخل على نفسي الزهو . . . والواقع أنني كنت جميلة حقاً بلوني الوردى النابل ، ولاسيما بعد عملية الصقل التي قامت بها تلك الفتاة الحسنة . وقد لاحظت أن أهالي لندن فضوليون إلى حد بعيد ، وقد يصح مثل هذا الفضول من جانبي أنا مثلاً إذ قضيت حياتي سجيناً في صدفة . . . أما من جانب الانجليز فهو أمر مستغرب ، وهم قوم رحل أفاقون . . . وكان صاحبي الجوهرى في الغالب يهودياً ، لأن أنفه كان مقوساً ، ثم إنه كلما وضعني في يده المجمعدة ، ضغط على في قسوة وشره حتى كنتُ أخشى على نفسي الهلاك . وقد باعني ذات يوم إلى سيدة متقدمة في السن بريح وافر على ما أظن ، لأنه جعل يفرك يديه طويلاً عقب إتمام الصفقة ، وكانت نية هذه السيدة أن تصنع مني خاتماً . إلا أن ولدها وهو طفل «عفريت» في السابعة من عمره ابتلعني ظناً منه أنني قطعة من الحلوى . فخشى على السيدة من الحزن ، أكان ذلك من أجل ولدها أم من أجل ؟ لا أعلم ، ولكنني أرجح الثانية على الأخص بعد حادث الزنجيين اللذين ماتا في سبيلي . . .

وقد تناول الطفل مسهلاً قوياً أعادني إلى الحياة والنور . . .

ثم انتقلت إلى أيد أخرى كلها مرتعشة بمجمدة . . .

رب ! كيف نُظِّم هذا الوجود ؟ كيف يكون الحياه والقي

عند المعجائر والدميات فقط ؟

ولكن من حسن حظي وقعت في النهاية في يد فتاة أمريكية حسناء مثيرة جداً ، أعطيت لها في شكل خاتم قدمه شاب خاطب ، وكانت الفتاة سعيدة بي . . . فكم من رحلات شيقة قنا بها — نحن الثلاثة — على متن طيارتها الخاصة ، إلا أنه اتضح للفتاة يوماً أن هذا الشاب يخونها ، وأنه لم يخطبها إلا طمعاً منه في ثروتها ، لذلك ثارت ثائرها : فألقت بي في وجهه ، وكان ذلك أمام الباب الخارجي للدار الواسعة ، فتخرجت حيث اختبأت في حفرة مظلمة بالحديقة أستظر من يتقدمني ، وأرجو أن يكون ذلك على يد فتاة جميلة .

حسين شوقي